داني روبنشتاين*

عودة العودة !
رؤية اسرائيلية لحق العودة

في حرب استقلال إسرائيل، العام ١٩٤٨، اقتلع ما يزيد على ٧٠٠ ألف عربي، يشكلون حوالي نصف عرب البلاد، من بيوتهم وأراضيهم وتحولوا إلى لاجئين. اليوم، وبعد مرور ٥٣ عاماً، يواصلون احصاء عدد اللاجئين الفلسطينيين الذي يصل إلى ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة. الآن، لم يعد المقصود أبناء الجيل الأول الذي قاسى وعاش على جلده تجربة الاقتلاع والتشريد، وإنما ابناءهم وأحفادهم. وكما في حينه، يشكل اللاجئون الآن أيضاً نحو نصف عديد أبناء الشعب الفلسطيني، لا يزال قرابة المليون من بينهم يقطنون في مخيمات للاجئين، في قطاع غزة والضفة الغربية والمملكة الأردنية، وفي سورية ولبنان.

هؤلاء اللاجئون الفلسطينيون «المطرودون من التاريخ والوطن» حسب قول الشاعر محمود درويش، أو «أناس اللامكان» حسب تعبير البروفيسور ادوارد سعيد، ما انفكوا يمثلون حجر عثرة رئيسي في طريق التسوية. والسؤال : لماذا؟ وما السبب؟ لقد مرت عشرات السنين بينما جميع اللاجئين تقريباً يقيمون بين ظهراني أبناء شعبهم الفلسطينيين، أو بين أشقائهم العرب، فلماذا لم يتم استيعابهم هناك؟ وما الذي يُبقي على صفتهم كلاجئين؟.

قبل حوالي عشر سنوات أصدرت كتاباً عن «حق العودة» تضمن محاولة لفهم وشرح الموضوع. الكتاب («عناق التينة» إصدار كيتر، ١٩٩٠، وقد رأى النور أيضاً في الولايات المتحدة وأوروبا) اعتمد بصورة أساسية على انتاجات واصدارات اللاجئين، وهي نتاجات أدبية وشعر (أدب الاشتياق) ورسومات ومقالات صحافية وكتب مذكرات وبحوث أكاديمية وأفلام سينمائية ومسرحيات وبرامج وثائقية وبروتوكولات محادثات سياسية. وفي إطار عملي الصحافي زرت مراراً تجمعات اللاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة ومخيمات لاجئين في لبنان (خلال سنوات الحرب ١٩٨٢ – ١٩٨٣) ولاحقاً مخيمات اللاجئين في الأردن. حاولت التعرف على الطريقة التي واجهوا فيها عبء المنفى الذي بدا لهم شديد

* كاتب في صحيفة «هآرتس»

الوطأة، حتى في الحالات التي كان فيها المنفى على بعد كيلومترات معدودة من البيت الذي فقدوه. لقد رأوا في كونهم لاجئين «فضيحة» و «مهانة» و «مذلة»، ومثل هذه التعابير تكررت في كل نشر أو نقاش أو حديث معهم. كل عائلة لاجئين تقريباً احتفظت بحرص شديد بمفاتيح بيتها القديم، الذي لم يعد قائماً على الأغلب، وبشهادات وكواشين ملكية الأرض وبطاقات هوية من عهد الانتداب البريطاني، ورخص المتاجر والورش، وأي دليل يؤكد الإنتماء للمكان الذي فُقد.

لقد أوجد الحنين الطويل والمستمر لدى اللاجئين ولدى الجمهور الفلسطيني عامة، نوعاً من التقديس أو التعظيم لكل شيء في الأماكن التي اقتلعوا وشردوا منها، أو «الجنة المفقودة» كما وصف المؤرخ الفلسطيني، عارف العارف، وطن الفلسطينيين الذي دمر وتحول ليصبح دولة اسرائيل، وكانت النكبة هي الضياع غير المحتمل.

وعلى مرّ السنوات، جرى تنمية حلم «العودة» كحجر أساس للحركة الوطنية الفلسطينية المتجددة بعد العام ١٩٤٨. أبناء اللاجئين الذين نشأوا في مخيمات غزة ولبنان هم الذين أقاموا منظمة التحرير الفلسطينية بوحي مصري في العام ١٩٦٤، والتي قضى أحد قراراتها الأولى بالكف عن استخدام كلمة «لاجئين» واستبدالها بكلمة «عائدين». وازاء الإدعاء الاسرائيلي بأن العرب، الذين أعلنوا الحرب على اسرائيل في يوم قيامها، هم المسؤولون عن مأساة اللاجئين وبالتالي يجب عليهم ايجاد حل لمشكلة هؤلاء اللاجئين. إزاء هذا الادعاء كتب ادوارد سعيد : «سبب هروب اللاجئين ليس بذي صلة على الإطلاق، فما يقرر هو حقهم في العودة».

بعد حرب الأيام الستة (حزيران ١٩٦٧) أُضيف الى مشكلة اللاجئين مدماك آخر، وهو محنة السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة الذين يعيشون تحت الاحتلال الاسرائيلي. وبهذا فقد أضيف التطلع نحو التحرر والسيادة السياسية في المناطق التي احتلت في العام ١٩٦٧، إلى الأيديولوجيا الوطنية الفلسطينية التي ارتكزت في الماضي إلى الباعث الرئيسي المتمثل بـ «العودة». لم يجر في أي وقت على الإطلاق حديث لدى الفلسطينيين عن تنازل أو تخلٍّ عن العودة، لكنه لوحظ في سنوات السبعينيات والثمانينيات، تغيير في سلم الأولويات. حيث طالبت منظمة التحرير الفلسطينية أولاً بانسحاب اسرائيلي من المناطق التي أُحتلت في حرب الأيام الستة، وتفكيك المستوطنات الاسرائيلية، والاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير، وبعد ذلك فقط بـ «حل مشكلة اللاجئين بروح قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بذلك». (كان ذلك على سبيل المثال ترتيب الأمور ـ الأولويات ـ في قرارات المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في تشرين الثاني ١٩٨٨ في الجزائر، والذي صدر عنه إعلان «وثيقة الاستقلال الفلسطيني).

تغيير سلم الأولويات، ووضع الحق بإقامة دولة في مقدمة المطالب الوطنية الفلسطينية هو الذي مهّد الطريق لعملية السلام بين دولة اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. في سنوات الخمسينيات لم يكن بالامكان التحدث عن تسوية من دون التجسيد الفوري لحق العودة.

في الجيل الأول للاجئين كان الحنين والاشتياق للمدن والقرى التي سُلبت وفقدت في العام ١٩٤٨ ملموساً جداً.. الحنين لشجرة الزيتون، لبئر الماء في الباحة، للبيت في القطمون، لبيارة البرتقال في يافا، والى جامع الجزار في عكا. الأماكن التي فقدت كانت معروفة، والذكريات ماثلة بحدة ووضوح. لكن الأمور لم تكن على هذا النحو لدى أبناء الجيلين الثاني والثالث، الذين وُلدوا في المنفى واستمعوا فقط إلى قصص عن النكبة والتشرد.

غسان كنفاني، كاتب «اللاجئين» الفلسطينيين المعروف والبارز جداً، كتب في روايته «عائد إلى حيفا» عن زوجين لاجئين من رام الله يسافران بعد حرب العام ١٩٦٧ لزيارة مدينة حيفا التي تركاها. كان الوطن بالنسبة للزوجين من رام الله هو البيت الذي أقاما فيه في حي الحليصة في حيفا، هو «نزلة الشارع»، سلم المنزل، قفل النحاس، شجرة الصنوبر، وشرفة البيت (البلكون). هذه هي فلسطينهم. ويتساءلا عن معنى الوطن بالنسبة لابنهما الذي ولد في مخيم اللاجئين في الغربة. فهو لم يعرف أصيص الورد، ولا السلم ولا حي الحليصة. فما هي فلسطين بالنسبة له؟ ويلمح كنفاني إلى أن المكونات أو العناصر التقليدية للوطن، والبيت المسلوب، ما هي إلا وهم فقط، ويُستَشف من القصة أن الحب والحنين لبيت معين ولقطعة أرض محددة، لا يكفيا لإعطاء محتوى أو مضمون لكيان وطني عصري. فلا يكفي الحنين إلى المكان القديم، وإنما يجب الكفاح من أجل مكان يحتوي على شيء ما جديد.. مكان تتحقق فيه تطلعات وطنية، ويقوم فيه استقلال وسيادة سياسية، يكون فيه الشعب سيّد مصيره. أبناء الجيل الثاني يدركون أن الحنين إلى الوطن لديهم هو حنين مُجرد أكثر، وأن حلمهم بالعودة هو إلى وطن «بيت وطني»، إلى دولة، وليس بالذات إلى البيت المحدد الذي فقد في يافا أو الرملة أو صفد أو بئر السبع.

في نهاية دراستي حول اللاجئين. قبل عشر سنوات، توصلت إلى استنتاج أنه طالما ظل يسود لدى الفلسطينيين المطلب المنادي بعودة حقيقية، فعلية، إلى البيوت والأراضي، فمن الواضح أنه لا توجد أية فرصة وأية امكانية للتفاوض مع دولة إسرائيل. فمطلبهم بالعودة إلى

الأماكن التي أُقتلع وشرد اللاجئون منها في العام ١٩٤٨ كان له منذ البداية مغزى واضحاً من ناحية سياسية، وهو تدمير دولة إسرائيل. وهناك في هذا الصدد إجماع شبه تام في إسرائيل.

تأسيساً على هذا التفكير، فإن عملية السلام بدأت فقط بعدما جرى تعويم حلم العودة الفعلية إلى البيوت والديار السليبة، لتحل مكانه تطلعات ابناء الجيلين الثاني والثالث بالعودة إلى بيت وطني. بناء على ذلك فقط تُيحت نافذة للحوار والمفاوضات بين منظمة التحرير الفلسطينية ودولة اسرائيل.

على هذه الأرضية وُقّعَ اتفاق أوسلو الذي نحّى جانباً مشكلة اللاجئين. وكان التأييد الأساسي لاتفاق أوسلو بين أوساط الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، الذين رأوا في ذلك فرصة لقيام دولة مستقلة في هذه المناطق (الضفة والقطاع). المعارضة الأساسية للاتفاق كانت في تجمعات اللاجئين في الشتات، وفي مقدمتهم اللاجئون في لبنان وسورية الذين شعروا أنهم مُهملون ومنسيون. وبموافقة اسرائيل عاد إلى مناطق السلطة الفلسطينية التي أقيمت في غزة والضفة الغربية، أعضاء الأجهزة المختلفة في منظمة التحرير الفلسطينية (غالبيتهم عسكريون) والذين بلغ عددهم مع أبناء عائلاتهم حوالي ١٥٠ ألف نسمة. كان القسم الأعظم من هؤلاء عائلات لاجئين، وقد أطلقوا على ذلك في القيادة الفلسطينية اسم «العودة الصغرى».

عملية أوسلو جرت ببطء وتثاقل طيلة نحو سبع سنوات (١٩٩٣ – ٢٠٠٠)، كان يمكن خلالها الوقوف جيداً على الاستراتيجية السياسية لعرفات ورجاله. لقد وضعوا القدس والمسجد الأقصى على رأس أولوياتهم.. لم يطرحوا العودة أو المستوطنات أو أية مسألة سياسية أخرى محل خلاف، وإنما فقط المطالبة بالقدس كعاصمة للدولة الفلسطينية العتيدة. هذا الأمر تجلى بوضوح في آلاف الخطب والتصريحات التي أدلى بها عرفات خلال تلك السنوات. ففي كل يوم تقريباً، وأحياناً عدة مرات في اليوم الواحد، كان عرفات يحدد علناً الهدف الوطني الفلسطيني بـ «سنقيم دولة مستقلة عاصمتها القدس». وقد ردّد ذلك مراراً وتكراراً كما لو كان آية أو فقرة من صلاة ثابتة.

كان في وسعه أن يحدد أهدافاً أخرى، مثل فكرة (حلم) العودة التي كانت تشكل كما هو معروف حجر الزاوية في التفكير الفلسطيني، لكنه لم يفعل ذلك.

إن طرح القدس كقضية محورية كان خطوة سياسية فلسطينية محكمة وذكية للغاية. فليس هناك موضوع أفضل لجذب واستقطاب اهتمام

التهجير ١٩٤٨

دولي، أكثر من موضوع القدس. فـ «الأقصى» والقدس معروفان في كل أرجاء العالم، وبالقطع في العالم الإسلامي الذي يحتاج عرفات الى مساعدته ودعمه. مئات ملايين المسلمين من الفلبين وحتى البوسنة لا يهتمون بالمستوطنات، وربما لم يسمعوا عنها ولا حتى عن اللاجئين الفلسطينيين، في حين أن القدس ومقدساتها محفورين في وعيهم.

علاوة على ذلك، فقد عرف عرفات ورجاله جيداً الموقف الإسرائيلي في مسألة اللاجئين. لقد عرفوا أنه لا يمكن الحصول على أية تنازلات إسرائيلية في قضية اللاجئين، وأن من الأفضل تنحية الموضوع جانباً، والتركيز بقوة قدر المستطاع على موضوع آخر. في القدس الشرقية يقيم (حالياً) ما يزيد على ٢٠٠ الف فلسطيني. وهؤلاء ليسوا مواطنين اسرائيليين أو في إسرائيل (مكانتهم في إسرائيل هي مكانة «سكان

على طريق الشتات

دائمين») وهم مرتبطون بالسلطة الفلسطينية. في اتفاق أوسلو وافقت اسرائيل على مشاركة عرب القدس في الانتخابات للرئاسة ولمجلس (برلمان) السلطة الفلسطينية.. في قلب القدس (في البلدة القديمة) يقيم أكثر من ٣٠ ألف فلسطيني، مقابل حوالي ٢٠٠٠ يهودي أو أكثر بقليل. مكانة الفلسطينيين في القدس غير قابلة للجدل أو التأويل، حيث تبدو الطريق لتحقيق انجازات فلسطينية في موضوع القدس سالكة ومريحة مقارنة مع الصعوبات في موضوع اللاجئين.

لقد كان عرفات يعرف جيداً ما يفعله عندما ذكَّر مراراً وتكراراً على مرّ السنوات بالبطل الإسلامي المعروف صلاح الدين، الذي حرر القدس من الصليبيين. وكان صلاح الدين قدّم للمسجد الأقصى، بعد تحرير القدس هدية شهيرة، وهي منبر فخم للصلاة، حُفر من خشب شجر الجوز، وقد ألقى خطباء المسجد من على هذا المنبر، خطبة صلاة يوم الجمعة التقليدية. وفي الحريق الذي وقع في المسجد الأقصى في صيف العام ١٩٦٩ (والذي ارتكبه شاب مسيحي متعصب من استراليا) احترق المنبر الفخم بصورة تامة تقريباً، ومنذ ذلك الحين عمل فنانون مسلمون في الخارج على إعادة تصميمه وبنائه. المنبر الجديد لم يوضع حتى الآن في مكانه، وبحسب الثرثرات التي شُمع لدى المسؤولين عن شؤون المسجد الأقصى، فإن ذلك ليس صدفة.

وكحال زعماء آخرين، فإن عرفات أيضاً يتوق إلى مراسم لها أهمية وقيمة تاريخية. وقد وصف أحد رؤساء هيئة الأوقاف الإسلامية في القدس الصورة التي تخيل فيها دخول عرفات للقدس الشرقية والمسجد الأقصى على النحو التالي: سيصل إلى المدينة في موكب مهيب يرافقه منبر الصلاة الجديد/ القديم ليضعه في المكان المخصص في المسجد المقدس، كما فعل صلاح الدين عندما أعاد الأقصى إلى أحضان الإسلام. من المحتمل جداً أن يأتي لمرافقة عرفات في مسيرة النصر إلى الأقصى زعماء مسلمون من كل أنحاء العالم، والرئيس مبارك وملوك المغرب والأردن. وسيشاهد مئات الملايين في أنحاء العالم مراسم الحفل المهيب الذي سيتم بثه عبر جميع محطات التلفزة. وحينها يمكن تخيل لاجئ فلسطيني كهل يقترب من عرفات ليسأله بصوت باكٍ ولكن ماذا بالنسبة لحقي في العودة؟ ماذا سيكون مصير البيت والبيارة اللذين فقدتهما في يافا؟ يستطيع عرفات أن يجيبه حينئذٍ بقوله: «حقاً، خسارة على البيت والبيارة، لكنك لا تستطيع بأية حال من الأحوال أن تقارنهما مع الأقصى!».

بعبارة أخرى فإن تركيز عرفات ورجاله على القدس والأقصى كان موجهاً، من ضمن ما استهدفه، نحو تقزيم حلم العودة. لقد شكل تعظيم وتضخيم اسم القدس والأقصى بالنسبة لعرفات ورفاقه، ما يشبه الذريعة أو الغطاء لعدم قدرتهم على تحقيق العودة.

استراتيجيتهم السياسية قضت بتحقيق الدولة، البيت الوطني، للشعب الفلسطيني، والقدس والأقصى كبديل، وربما كتعويض، عن ضياع حق

العودة.

هذا الوصف التصويري، ليس ثمرة الخيال وحسب، ففي القيادة السياسية الفلسطينية تحدثوا مراراً عن أفكار من هذا النوع. الفكرة بدت للكثيرين صحيحة، وفي الصيف الأخير (الماضي)، في المؤتمر الفاشل في كامب ديفيد، وكذلك في مقترحات التسوية التي قدمها الرئيس كلينتون، وقبلها الى هذا الحد أو ذاك ايهود باراك، سيطر مبدأ مشابه مؤداه: أن تتنازل اسرائيل في القدس والمستوطنات مقابل تنازل فلسطيني عن العودة.

لكن ذلك لم يتحقق أو يحدث، والسؤال الملح هو: لماذا؟ هل عرفات والفلسطينيون غير مستعدين، وربما غير قادرين على التنازل عن العودة؟ ألا يدركون أن الإصرار على عودة فعلية يعني من ناحية الاسرائيليين أنه لن تكون هناك تسوية؟!.

الإجابات على هذه الأسئلة مُركبة، وبنظرة الى الوراء يمكن القول إنه خلال العامين الأخيرين، وكلما كان يقترب موعد المفاوضات حول التسوية الدائمة بين اسرائيل والفلسطينيين، كانت مشكلة اللاجئين وحقهم بالعودة تثار مجدداً بكل ما تنطوي عليه من حدة وصعوبة. ويمكن ملاحظة ذلك على سبيل المثال في الدراسة التي أعدها لاونرد كول، من الولايات المتحدة، رئيس «المجلس اليهودي للشؤون العامة» والذي فحص عدد المقالات عن حق العودة التي نشرت خلال السنوات الأخيرة في صحيفة نيويورك تايمز. في أواسط التسعينيات نشرت هذه الصحيفة، ذات السمعة والرواج، ما بين مقالين الى ثلاثة مقالات في السنة عن هذا الموضوع. في العام ١٩٩٦، نُشرت في صحيفة (نيويورك تايمز) ستة مقالات حول اللاجئين والعودة، وفي العام ٢٠٠٠ ارتفع العدد الى ٣٦ مقالاً، ومع اندلاع الانتفاضة الجديدة ازداد العدد أكثر، لدرجة أنه كان هناك من اقترحوا تسمية الانتفاضة الجديدة باسم انتفاضة العودة.

ويبدو أنه ازداد أكثر، في وسائل الإعلام العربية والفلسطينية خلال العامين الاخيرين الحديث عن اللاجئين والعودة. وقد تم احياء ذكرى مرور خمسين عاماً على «النكبة» التي صادفت في العام ١٩٩٨، في كل بقعة في الأراضي الفلسطينية وفي الشتات، حيث نشرت عشرات بل مئات المقالات، وعقدت مؤتمرات وأجريت أبحاث ودراسات واستطلاعات. وظهرت في الصحف الفلسطينية سلسلة مقالات وتسجيل مذكرات وذكريات عن القرى والبلدات المدمرة. وحيث ان هذا العام شهد تحضيرات من جانب اسرائيل والفلسطينيين للمفاوضات حول التسوية الدائمة، فقد سُئل لاجئون كثيرون حول رؤيتهم لحل المشكلة. وفي جميع هذه المقالات والدراسات والفعاليات برزت حقيقة واحدة، وهي أن اللاجئين، بمن فيهم أبناء الجيلين الثاني والثالث، يرفضون التنازل بأي حال عن حقهم في العودة الى بيوتهم. كذلك أعلن الكثيرون منهم صراحة، أنه إذا تم الإقرار بحقهم في العودة فإنهم ينوون تجسيد هذا الحق.

في البحث الذي أجراه الدكتور عادل يحيى من مخيم الجلزون قرب رام الله، سئل اللاجئون: في حال حصولهم على تعويض وتم تجسيد العودة إلى دولة وطنية مستقلة، فهل سيعتبرون ذلك حلاً للمشكلة؟ إجابة ٦٠ في المئة من اللاجئين كانت سلبية. فهم ليسوا مستعدين لقبول عودة الى بيت وطني كبديل للعودة إلى البيت الحقيقي الواقع داخل اسرائيل (هذا البحث نشر في كتاب عنوانه «اللاجئون الفلسطينيون ١٩٤٨ – ١٩٩٨ : تاريخ شفوي» اصدار الرابطة الفلسطينية لتبادل الثقافة ـ رام الله ١٩٩٩).

اضافة الى ذلك، فقد برز أيضاً في اجابات اللاجئين اتجاه مؤداه أن حق العودة يجب ألا يكون على الإطلاق موضوعاً للمحادثات السياسية بين منظمة التحرير الفلسطينية ودولة اسرائيل. في برنامج تلفزيوني (بثته محطة «الجزيرة» القطرية) قالت امرأة من سكان عمّان، ابنة عائلة لاجئة في يافا، ان عرفات ليس محامياً عنها، وأنها لم تفوضه ليفاوض أو يتنازل باسمها عن ممتلكات عائلتها في يافا. «إذا كان عرفات يريد التنازل فليتنازل عن بيت أبيه، لكنه لا يستطيع التنازل عن بيت أبي» هكذا قالت.

مثل هذه التصريحات والأقوال أثارت أسئلة من قبيل: هل طرأ تصلب على الموقف الفلسطيني فيما يتعلق بمشكلة اللاجئين؟ وهل الجمهور الفلسطيني وقيادته غير مستعدين الآن للمساومة على اقامة الدولة والعودة إليها؟.

الانطباع هو أن الموقف الفلسطيني تجاه العودة شهد بالفعل تغييرات في الفترة الأخيرة. وهذا لا يعكس بالضرورة مؤامرة فلسطينية، ولا أيضاً خطة لعرفات ورجاله لتحقيق كل ما يتطلعون إليه على مراحل. في الماضي، في سنوات السبعينيات والثمانينيات، لم تكن دولة اسرائيل تعترف بحقوق وطنية للفلسطينيين. وقد قضى الموقف الاسرائيلي الرسمي إبان تلك الفترة بفرض مقاطعة تامة لمنظمة التحرير الفلسطينية، حيث رفض اعتبار المنظمة كممثل شرعي معتمد للشعب الفلسطيني أو الحركة الوطنية الفلسطينية. ونص قانون اسرائيلي في حينه على فرض عقوبة السجن على من يقابل أو يلتقي مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية، في ضوء ذلك بدت للجمهور الفلسطيني في تلك الفترة ذاتها، فكرة قيام

دولته المستقلة كحلم بعيد المنال وغير قابل للتحقق. كثيرون في صفوف القيادة الفلسطينية وفي صفوف اللاجئين أيضاً، رأوا في تلك الأيام في إقامة الدولة الفلسطينية، سدرة المنتهى. وقد ساد في حينه أيضاً الانطباع الذي كان صحيحاً في وقته، إن قيام الدولة (الفلسطينية) يمكن أن يشكل تلقائياً حلاً لمشكلة اللاجئين أيضاً.

لكنه طرأت خلال العقد الأخير تغيرات كثيرة، وفي مقدمتها الاعتراف المتبادل بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية والذي شكل الأساس لإبرام اتفاق أوسلو. وصار واضحاً للجميع، منذ توقيع اتفاق أوسلو، أن السلطة الفلسطينية التي أقيمت في الضفة الغربية وقطاع غزة هي دولة على الطريق. غالبية الفلسطينيين اعتبروا أن السلطة الوطنية المنتخبة بقيادة عرفات هي بمثابة حلم الدولة المتحقق أمام أنظارهم. في وسائل الإعلام الفلسطينية أخذوا منذ العام ١٩٩٤ يسمون سلطة الحكم الذاتي في الضفة وغزة باسم دولة فلسطين، بينما يحمل عرفات لقب «رئيس دولة فلسطين». لكن كما يحدث كثيراً مع حلم يتحقق، يثير هذا الحلم شعوراً بخيبة الأمل. لقد خاب أمل الجماهير الفلسطينية كثيراً من السلطة الوطنية برئاسة عرفات ومن أداء هذه السلطة خلال سبع سنوات من قيامها. فالاقتصاد الفلسطيني يعاني حالة تعثر وترنح، وغالباً بذنب دولة اسرائيل التي فرضت قيوداً قاسية على حركة وتنقل سكان المناطق الفلسطينية. وواجهت أجهزة القانون والقضاء التابعة للسلطة الفلسطينية مصاعب في أداء عملها. حيث حلت مكانها في توجيه وإدارة أوجه الحياة في الأراضي الفلسطينية مجموعة من أجهزة الأمن الغامضة والفظة. وقد مارست هذه الأجهزة عملها بصورة تعسفية ولم تحترم الحقوق الأساسية للمواطن كما أُتهم رؤساؤها بالفساد. وراجت في كل ركن وناحية بالضفة الغربية وغزة قصص عن أعمال تبذير وبذخ واختلاسات نُسبت لكبار المسؤولين في السلطة، المقربين من عرفات. الدكتور صالح عبد الجواد، المحاضر في جامعة بيرزيت، والذي شعر مثل كثيرين غيره إلى أية درجة يطغى الإحساس بالمرارة والاستياء لدى الجماهير في الأراضي الفلسطينية، صرح في مقابلة صحافية ان الانفجار العنيف لانتفاضة الأقصى لم يفاجئه. وبحسب قوله، فقد شعر بالانفجار المقترب، بيد أنه لم يستطع أن يحدد ضد من سيوجه الغضب الشعبي، ضد السلطة الفلسطينية أم ضد دولة اسرائيل؟

وبعبارة أخرى، فقد خيَّبت الدولة الفلسطينية المرتقبة آمال الكثيرين. وقد تركزت الخيبة في تجمعات اللاجئين في الأراضي الفلسطينية والخارج. وتساءل اللاجئون على هذه الأرضية: أَمِنْ أجل «بيت وطني» بائس كهذا علينا أن نتنازل عن العودة؟! وكانت اجابتهم سلبية.. ليس وارداً في الحسبان أن نتخلى عن البيت الحقيقي الذي كان يعود لعائلتنا. والحال، فإن الصفقة التي عرضها عرفات على أبناء شعبه [دولة والقدس مقابل العودة] اعتبرت غير جديرة أو مجدية.

لقد شعر عرفات، ورفاقه في القيادة، جيداً بأجواء التوتر العارم في صفوف الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، تمهيداً لامكانية التوقيع على اتفاق دائم يتخلى عن اللاجئين وعن حقهم بالعودة. وقد وَقعَتْ أكثر من مرة مظاهرات واحتجاجات عنيفة في المخيمات، مثل المظاهرة الصاخبة التي رافقت زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى مخيم الدهيشة للاجئين قرب بيت لحم في آذار ٢٠٠٠، بعد سبعة أسابيع، في ٥ أيار ٢٠٠٠، أحيا الفلسطينيون ذكرى «يوم النكبة» (في ١٥ ايار ١٩٤٨ انتهى حكم الانتداب البريطاني في أرض اسرائيل وأعلن عن قيام دولة اسرائيل). في العالم العربي، وفي أوساط الفلسطينيين تُنظم بصورة عامة في هذا التاريخ اجتماعات ومظاهرات قليلة. لكن الأحداث والفعاليات كانت في هذه المرة، في أيار ٢٠٠٠، جماهيرية حاشدة وعنيفة بشكل خاص. في المدن الفلسطينية نُظمت اضرابات ومسيرات مصحوبة بمواجهات مع الاسرائيليين. جلس عرفات ومعاونوه في ذلك اليوم في مكاتب السلطة الفلسطينية في رام الله، وعلى بُعد بضع مئات الأمتار جرت معارك تبادل اطلاق نار استمرت لوقت طويل بين مجموعات فلسطينية مسلحون وجنود الجيش الاسرائيلي. مثل هذه الاشتباكات المسلحة، والتي سقط فيها عدد كبير من المصابين. كانت تعد قبل سنة حوادث شاذة للغاية على أرضية محادثات السلام الحثيثة التي أجراها في تلك الفترة موفدو ياسر عرفات وايهود باراك، والتي أفضت الى لقاءات القمة في كامب ديڤيد (في تموز ٢٠٠٠).

أحد مهرجانات «يوم النكبة» الفلسطينية أقيم في مخيم بلاطة في نابلس، وهو أكبر مخيم للاجئين في الضفة الغربية. عضو المجلس التشريعي الفلسطيني المنتخب، حسام خضر، الذي تولى ادارة المهرجان، وهو من أبناء المخيم، سُئل من جانب أحد الضيوف (شخصية عامة، يهودي - أميركي)، إذا كان يُصرُّ على حقه باسترداد بيت عائلته في «سلَمة» وهي بلدة عربية كبيرة كانت تقوم في الماضي بضواحي يافا. وقد أجاب «خضر» أن له في الواقع حق في بيت وأملاك العائلة في يافا. لكن حتى إذا أقروا بهذا الحق فإنه لا ينوي العودة إلى هناك. وقال «أنا من أبناء الجيل الثاني للاجئين، وُلدت في بلاطة، أنا مستعد للحصول على تعويض، فهنا أبني عائلتي وحياتي». إجابته أثارت ارتياحاً لدى الاسرائيليين الذين تواجدوا في المكان، غير أن «خضر» طلب اضافة تحفظ بقوله: «أنا لا أستطيع اعطاء تعهد بالتنازل عن البيت في سلَمة باسم ابنائي وأحفادي».

لماذا؟ لأن الحفيد يستطيع أن يأتي بعد خمسين عاماً ليقول إن جدّي كان مُرتبكاً، أخذ قليلاًمن المال ووقع على وثيقة تنازل غير سارية المفعول، لأن البيت في «سلمة» ليس مُلكاً له فقط، بل مُلك عائلتي عمره مئات السنين. وبكلمات أخرى فقد أوضح حسام خضر إذاً ان استعداده للتنازل عن العودة لا قيمة له.

خلال العامين ١٩٩٨ . ١٩٩٩، بدأ عرفات بايلاء مزيد من الاهتمام لموضوع اللاجئين وسط التركيز على لاجئي لبنان. فوضع اللاجئين في لبنان يُعد الأسوأ بين سائر أماكن تواجد اللاجئين. كما أن جميع الفئات المتنازعة في المجتمع اللبناني مُتفقة في شيء واحد، وهو المطالبة باخراج اللاجئين الفلسطينيين من الدولة اللبنانية. وقد صرح زعماء لبنانيون أنهم لن يسمحوا لدولة اسرائيل والفلسطينيين بالتوصل إلى تسوية دائمة من دون اخراج اللاجئين الفلسطينيين من لبنان. على هذه الأرضية بدأ عرفات في العامين المذكورين بإعادة تنظيم وبناء حركة «فتح» في لبنان بعدما كانت قد تفككت بصورة شبه تامة بسبب اتفاقيات أوسلو. وقد أرسل عرفات لأتباعه في مخيمات لبنان المال والعتاد، ومن تتبع خطابات عرفات، لا بدّ وأنه لاحظ ان عرفات بدأ يتحدث هنا وهناك عن موضوع اللاجئين أيضاً.

هذا الحديث اكتسب تحولاً واضحاً بعد اندلاع الانتفاضة الثانية في نهاية أيلول ٢٠٠٠. في مؤتمر القمة العربية الذي عقد في القاهرة في تشرين الأول، وكرس لبحث ومناقشة الانتفاضة الجديدة، تطرق عرفات بشكل صريح الى حق العودة. في الأسابيع التي أعقبت ذلك، وفي كل مرة، أثار فيها عرفات والمتحدثون باسمه مطلبهم بأن تنفذ اسرائيل القرارات الدولية، لم يكتف هؤلاء بذكر القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ كما كان مألوفاً طيلة السنوات السابقة، بل أضافوا إلى ذلك قرار ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام ١٩٤٨، والذي يتحدث عن حق اللاجئين في العودة الى بيوتهم. في جلسة المجلس التشريعي الفلسطيني المنتخب، التي عقدت في غزة في اذار ٢٠٠١، كرر عرفات مرتين ذكر القرار ١٩٤. أعضاء آخرون في القيادة الفلسطينية صعّدوا لهجة هذا الحديث، حتى أن الدكتور زكريا الاغا، زعيم حركة «فتح» في غزة، عدّل في خطاب ألقاه أمام اجتماع حاشد في القطاع في شباط ٢٠٠١، شعار «فتح» الشهير «ثورة حتى النصر» مضيفاً له كلمة واحدة «... والعودة».

لقد تبلور جُل كيان عرفات السياسي والمجموعة القديمة التي تحيط

النكبة . . . ١٩٤٨

به في المنفى الفلسطيني. وكان عرفات قد ولد وترعرع في الجالية الفلسطينية الصغيرة في القاهرة، وعمل مع أصدقائه أبناء اللاجئين في الكويت، وأسس معهم فروع حركة «فتح» في مخيمات اللاجئين في سورية. وقاد مقاتليه في مخيمات الأردن في الحرب الأهلية العام ١٩٧٠، ثم عاش بعد ذلك بين لاجئي بيروت ولبنان نحو عشر سنوات أو أكثر. وبنظرة الى الوراء، كان يمكن الافتراض أن الانقطاع أو الابتعاد عن اللاجئين وعن معاناتهم وتطلعاتهم، هو شيء مستحيل تقريباً من ناحيتهم (أي عرفات وزملائه). وفي الانتفاضة الثانية، التي أسدلت الستار على عملية أوسلو، عادت مسألة حق العودة لتطل برأسها من كل مكان، وبكل ما تنطوي عليه من حدة وعنفوان.